عرض كتاب: الجوابرة والأنصار الخزرج بالسودان تاريخهم وأنسابهم،[1] تأليف: جابر الأنصاري عبد الله معروف

عرض: يوسف فضل حسن

يقع هذا الكتاب الأنيق، جيد المحتوى، حسن الإخراج، في ١٩٣ صفحة من القطع المتوسط. ويتكون من مقدمة وستة فصول، بالإضافة لتقديم ضاف من البروفسير عزالدين الأمين. وفيه عدد من الخرائط والوثائق التي تم اختيارها بعناية، ولها صلة مباشرة لما ورد في متن الكتاب.

يعرض الكتاب في فصوله الستة تاريخ وأنساب الجوابرة في السودان، ويتدرج فى الوصول لهذه الغاية بنبذة تاريخية عن الأوس والخزرج في موطنهم الأول، وعن دخول الإسلام مصر باعتبارها المستودع الرئيسي الذي تدفقت منه المجموعات العربية إلى بلاد النوبة وسودان وادي النيل، خصوصاً بعد عام ١٣١٧م عندما اعتلى سيف الدين عبد الله برشمبو عرش مملكة المقرة.

بعد ذلك بدأ المؤلف في عرض تاريخ الجوابرة في شمال السودان ووسطه (في منطقة الجزيرة) وغربه (منطقة بارا والخيران في كردفان)، وتعرض لصلاتهم بالركابية والبديرية الدهمشية والدواليب والإسماعيلية، وغيرهم من الجماعات التي يشاركونها العيش في تلك المنطقة.

(١) طبعة أولى ، دار السداد للطباعة ، الخرطوم ، ٢٠١٠م ، رقم الإيداع ٢٠١٠/٣٤٠.

ويبرز الدافع الذاتي كهدف أساسي لتأليف هذا الكتاب؛ فيقول المؤلف في ص ٩: "إن هذا الكتاب إسهام قمت به على سبيل الجهد الخاص لأهلي وعشيرتي، ولكني حينما توغلت في البحث في بطون الكتب، وقمت ببعض الأسفار واستمعت لكبار الرواة والمهتمين بالنسب وتوفرت لي مادة لابأس بها، رأيت أن أقدمها للمكتبة السودانية لعلها تلقي مزيداً من الضوء على تركيبة أهل السودان العريقة في عروبتها وإسلامها". ومع هذا الدافع الذاتي فإن ما توفر للمؤلف من معلومات أضاء أنساب عشائر وقبائل أخرى غير التي ينتمي إليها المؤلف، وهو ما أشار إليه البروفسير عزالدين الأمين في تقديمه الضافي لهذا الكتاب.

إن الغرض الذي ذكره المؤلف يستحق أن نسطر فيه سطوراً، كنت قد كتبتها عن دراسة مماثلة،[٢] ليس بدافع القبلية أو العنصرية، ولكن بدافع التأصيل وإدراك الأنساب.

عرف العرب الأنساب واهتموا بحفظها وتفاخروا بها منذ الجاهلية، وبالغوا في الرجوع إلى نسب أجدادهم حتى أن بعضهم كان يسلسل نسبه من أبيه إلى ما بعد قحطان وعدنان. ومن أشهر النسابة الذين وردت أسماؤهم في كتب التراث العربي دغفل السدوسي وأبو ضمضم وصعصعة من العصر الجاهلي. واستمر العرب فى الاعتزاز بأنسابهم في الإسلام، وورد في الأثر الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم تفاخر بنسبه قائلاً: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب". وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على معرفة الأنساب من باب فضل وصل الأرحام. وروى

(٢) انظر: يوسف فضل حسن (٢٠٠٧)، حواشٍ على متون علماء ومؤرخين ومفكرين في تاريخ إفريقيا والسودان. الخرطوم: سوداتيك، ص ١١٧.

أبو هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأجل، مرضاة للرب". ومن أقوال الخليفة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه "تعلموا العربية فإنها تزيد المروءة، وتعلموا النسب فربَّ رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها". وغير بعيد عن هذا السياق يأتي قول الإمام علي كرَّم الله وجهه: "أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير، فإنك بهم تصول وبهم تطول، وهم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم، وعاود سقيمهم، وأشركهم في أمورك، ويسِّر على معسرهم". ولعل ذلك يأتي في باب لماذا الاهتمام بالنسب.[٣]

وتعد مؤلفات هشام بن محمَد بن السائب الكلبي من أول كتب النسب، ثم الإمام عبد الملك بن هشام، صاحب سيرة رسول الله، وكتاب أنساب حمير وملوكها. ويعتبر كتاب الأنساب للإمام السمعاني من الكتب الأساسية. وقد وضعه في ثمانية مجلدات ثم لخصه ابن الأثير في اللباب فى ثلاثة مجلدات، ثم لخصه الإمام السيوطي وسماه لباب اللباب. وبجانب هذه الأمثلة فهناك العديد من المؤلفات في الأنساب مازال بعضها مخطوطاً.

لقد اهتم النسابة السودانيون بأشجار النسب العربية وعلى رأسهم السمرقندي الذى سجل أنساب القبائل العربية، ولعله مصدر كثير من روايات النسب المتداولة الآن بين الأسر، والمحفوظ كثير منها في دار الوثائق القومية. وجل كتيبات النسب هذه ما زالت مخطوطات، إلا ما نشر ماكمايكل عام ١٩٢٢م.[٤]

(٣) نفس المرجع، ص ١١٧–١١٨.

(٤) H.A. Mac Michael (1922) *A History of the Arabs in the Sudan*. Cambridge: Cambridge University Press, pp. 203-212.

اعتمد المؤلف على نحو من ثمانين مصدراً ومرجعاً في تاريخ العرب، ومصر والسودان، والأنساب، وجل هذه المراجع مكتوبه بالعربية، عدا كتابين لماكمايكل.[٥] وكنت أرجو لو ألقى المؤلف نظرة على كتابَيْ، العرب والسودان منذ القرن السابع حتى مطلع القرن السادس عشر، الذي صدر باللغة الانجليزية عام ١٩٦٧،[٦] لعله كان يجد فيه ما يرفد كتاب الجوابرة والأنصار الخزرج بالسودان. كما انتبه المؤلف للوثائق المحلية، والكتب والمذكرات غير المنشورة، وفوق ذلك كله الإفادات الشفوية.

يُعرَّف المأثور الشفوي بأنه كلام غير مكتوب، متوارث جيلاً بعد جيل ومتداول بين أفراد المجموعة. وبهذا المعنى فإنه، وإن احتوى على قدر من الصحة التاريخية، بالمقابل معرض لعوامل التحريف والتغيير على مر السنين. ولعل واحدة من انتصارات هذا العمل أنه حوَّل العديد من الروايات التاريخية والمأثورات الشفوية وأشجار النسب إلى مواد مدونة محققة فأصبحت بمنأى عن عوامل تحريف النصوص، بقصد أو بغير قصد، والتي تعد سمة من سمات التداول الشفوي.

إن منهج المؤلف في التعامل مع الإفادات الشفوية يستحق وقفة خاصة. بذل المؤلف في جمع الروايات الشفوية جهداً طيباً، فما أن يسمع براوٍ ما، أو منطقة يمكن أن يجد فيها إفادات جديدة تخدم موضوع بحثه حتى يشد الرحال إليها. ومع أن الأستاذ جابر لم يعرض لنا إن كان قد سجل هذه الإفادات صوتياً أم لا، ولم يثبت نصوص هذه إلافادات بين ملاحق الكتاب، إلا أنه بذل ما في وسعه في توثيق

(٥) أولهما المرجع المذكور في الهامش رقم (٤) أعلاه، والثاني

(1912) *The Tribes of Northern and Central Kordofan*. Cambridge: Cambridge University Press.

(٦) Yusuf Fadl Hasan (1967) *The Arabs and the Sudan*. Edinburgh: Edinburgh University Press, p. 135.

الإفادات. فذكر اسم من كان في رفقته ساعة الجمع الميداني، ودوَّن اسم الإخباري ومنطقته، وتاريخ رحلة الجمع الميداني، كما عمد إلى توثيق صور الرواة في بعض الحالات. أما الرواية الشفوية نفسها فقد اكتفى بتلخيصها. ويمكن أن نلمح هذا النهج الذي اتبعه المؤلف في كثير من المواضع التي ترد فيها الإفادات الشفوية. ومن ذلك قوله: "بعد معلومات كتابات عثمان حمدنا الله والإفادات الشفاهية رأيت من الضرورة بمكان القيام بزيارة إلى المنطقة (أي دار الجوابرة في دنقلا) فيسر الله السفر إلى كرمة برفقة الأستاذ محمَد إبراهيم يعقوب، ابن المنطقة وأحد المهتمين جداً بتاريخ وأنساب الجوابرة. فغادرنا الخرطوم صباح الخميس ٢٨ يناير ٢٠١٠م حيث زرنا كلاً من دنقلا وكرمة البلد وكرمة النزل وأبو فاطمة ووادي خليل ومقاصر والدبة وكرمكول والتقينا بأهلها الكرام جزاهم الله خيراً على كرمهم الفياض ومعلوماتهم الثرة، وحقيقة الأمر ليس من رأى كمن سمع" (ص ٧٨).

إن أهمية اعتماد منهج صارم في توثيق الجمع الميداني يبرز في حالة رغبة الباحثين من بعده لمعرفة المزيد بما ذكره الإخباري الأول والتوسع فيه، وربما العودة لنفس الإخباري الذي قدم الإفادة بطرح المزيد من الأسئلة عليه. نشكر للمؤلف اعتماده هذا المنهج في التوثيق بعد انتهاء مرحلة الجمع. نلاحظ أيضاً حصافة المؤلف وموهبته الفطرية، التي تبلغ درجة الحرفية أحياناً، في التعامل مع الرواية الشفوية؛ فلا يتبناها، إنما يضعها فى معظم الحالات كخيار، ويستخدم لفظ "حسب" لرد أمر مصداقية الرواية للإخباري "نفسه" فيقول: "حسب رواية فلان"، وهو أسلوب جيد، وإن كنت أرجو أن يقوم المؤلف ببعض التحليل والمقارنة التي ترجح رأياً على آخر.

ومع ذلك فقد كان المؤلف يقوم ببعض عمليات التحقيق الأولية بتحري مصداقية الإفادة، فيقارنها مع التاريخ المكتوب. فيقول مثلاً في صفحتي ١١٨-١١٩، فى حديثه عن صلة الجوابرة بسلاطين الفور في نحو عام ١٧٨٥، إنه بالرجوع لتاريخ سلاطين

الفور نجد أن عهد السلطان محمد الفضل كان من ١٧٨٧ وحتى ١٨٣٩ فيكون التاريخ المذكور في الرواية هو الراجح ."ويعضد هذه الرواية ما وجدته فى كتاب سودان وادي النيل للدكتور أحمد الحفناوي"، ثم يقول: "ومما يعضد هذه الرواية ما ذكره البروفسير عوض السيد الكرسني عن الدواليب". وقد تجلى نهجه هذا في تحققه للروايات الشفوية المتعددة حول "كَتْلَةْ أَسْحَفْ" (أو ازحف)، حيث أورد الرويات أولاً، ثم يقتبس ماجاء في كتاب السيف والنار، لسلاطين، حول هذه الواقعة، ثم ما ذكر عنها فى تاريخ العرب فى السودان لماكمايكل. وكنت آمل أن يقدم تحليلاً للمصادر نفسها، ولكنه اكتفى بذكر الخبر، ولعل المقام لم يكن يسمح له بغير ذلك.

وفي عمليات التحقيق الأولية حاول المؤلف وضع جدول زمني للإفادات الشفوية التي حصل عليها اعتماداً على الأحداث البارزة في الرواية مثل قوله في صفحة ١١٦: "غالباً ما كان حضور بعض أفراد وأسر الجوابرة لكردفان في بداية القرن الثامن عشر الميلادي، في عهد سلطنة الفور". فقد كان للنهج الذي اتبعه المؤلف في جمع الإفادات الشفوية وتحقيقها وعرضها دور في خروجها بهذا الاتساق والتسلسل المنطقي. وكنت أرجو لو اتبع منهجاً مماثلاً في التعامل مع الكتب وما تحويه من معلومات لأننا غالباً ما نقع فى أسر الكلمة المطبوعة رغم تعارضها في بعض الأحيان مع الحقيقة التاريخية ومع المنطق نفسه. ومن ذلك ما نقله المؤلف عن كتاب مملكة أرقو لمحمد علي الملك، إذ أورد مؤلف هذا الكتاب (أي مملكة أرقو) "مستنداً على مصادر عربية وأجنبية، أن مؤسس الحلف العربي (الذي أطاح بمملكة سوبا المسيحية)، [أي] الشيخ إبراهيم المشهور بجعل، [الذي] تخير لنشاطه أولاً مدينة بارا لبعدها النسبي عن رئاسة مملكة النوبة وصار يجمع القبائل في حلف، وبعد أن زادت مجموعته في العدد والعدة انتقل بهم إلى النيل الأبيض ولكن عاجلته المنية، فانتقلت الزعامة إلى عبد الله جمَّاع" (ص ١٢٢). أولاً كانت منطقة بئر سرار هي أول منطقة تكونت فيها زعامة

الجعليين بزعامة جدهم سرار حسب بعض الروايات، ولكن القول بأن إبراهيم هو مؤسس الحلف العربي الذي أطاح بسوبا لا تسعفني الذاكرة في الوقوف عليه في أي من المظان التاريخية. وهو قول يحتاج للمراجعة قبل الاعتماد عليه.

إن ما قام به المؤلف الأستاذ جابر الأنصاري في إعداد الكتاب، وفي الفصل السادس على وجه الخصوص، هو عمل ممتاز وجهد طيب ينتزع منا الإشادة والتقدير، ويصب في مجرى التوثيق التاريخي للمجموعات السودانية الذي ما فتئنا نحث على الاهتمام به لتعميم المعرفة المخزونة في قلوب الرجال، ونشرها لتصبح فصولاً مكتوبة مقروءة تستفيد منها الأجيال القادمة.

إن ما أورده الأستاذ جابر الأنصاري في الفصل السادس من هذا الكتاب عن الجوابرة في شمال كردفان وتاريخ هجراتهم إليها، ومواقع استقرارهم بها وعلاقاتهم مع سلطنة الفور والعهد التركي– المصري، ودولة المهدية وهجرتهم إلى أم درمان والنيل الأبيض، ثم هجرتهم العكسية إلى كردفان إبان الحكم الثنائي، وصلاتهم بالمجموعات القبلية في كردفان ودارفور، كل ذلك يعتبر بحق فتحاً جديداً وإضافة كبيرة لمعرفتنا التاريخية. وهو عمل لا نملك أمامه إلا أن نشد على يد المؤلف شاكرين ومترقبين صدور الجزء الثاني من هذا الكتاب "شجرات أنساب الجوابرة بشمال كردفان"، كما وعد المؤلف.